

## المفكر روائيا



عواد علي  
كاتب عراقي

وجد العديد من المفكرين العرب في السرد الروائي صلاذا للتعبير عن مواقفهم وتاملاتهم وتجاربهم، وبحث أفكارهم المتعلقة بالعلاقات السياسية والاجتماعية والدينية، والكون والطبيعة، وعالم ما وراء الطبيعة، بصيغة تمثيل واقعي أو تخييلي رمزي. من هؤلاء المفكرين نذكر، تمثيلا لا حصر، التونسي محمود السعدي، والمغربيان محمد عزيز لحبابي، عبدالله العروي، والمصريين عباس محمود العقاد، وزعت السعدي، والسوري مطاع صفدي، والعراقي عزيز السيد جاسم، والأردني غالب هلسا، واللبيبي الصادق النيهوم، الذي نحاول في هذا المقال الوقوف على رواياته الثلاث "من هنا إلى مكة"، "القرود" و"الحيوانات".

### من مكة إلى هنا

تدور أحداث رواية "من مكة إلى هنا" (1970) في قرية الصيادين الواقعة على طرف خليج سوسة في ليبيا، أيام الاحتلال الإيطالي للبلد، ذلك الاحتلال الشيع الذي أحكم قبضته على الليبيين، وجندهم استعدادا لغزو الحبشة. يطل الرواية أفريقي زنجي يدعى مسعود الطبال مهاجر إلى شمال قارته، كان يسكن في بنغازي ثم انتقل إلى قرية الصيادين ليصيد السمك ويعتاش منه. وهو يكرنا، بعناده وشيخوخته ووحده، بشخصية الشيخ الصياد سنتياغو في رواية همنغواي الشهيرة "الشيخ والبحر"، وقد جرد من كل الصفات التي تجعله في مرتبة الإبطال. لكن الأحداث في الرواية قليلة لأن معظمها يدور في سريرة مسعود وباطنه أكثر مما تجري في أرض الواقع، فهو في صراع محتدم مع فقيهه القرية، الفاضل على سلطة الدين، بدلاتها الكهنوتية القمعية، وذلك لأنه، أي مسعود الطبال، يصطاد السلاحف، التي يعتبرها الفقيه، ممثل القوى الرجعية المختلفة، مباركة وحرم اصطفاها، ومن يفعل ذلك فإنه يتجدي الله والأرواح، متغافلا عمدا قول الله "أحل لكم صيد البحر وطعامه"، وعندما يفارق الصبي الذي يعمل مع مسعود، يفسر الفقيه الحادثة بأنها رسالة من الله، في حين أن مسعودا لا

ينبغي اصطفاها السلاحف فقط، بل يريد زيادة عدد ما يصطاد لأن ثمة إقبالا على تناولها في مطاعم الإيطاليين، من خلال تزويد قاربته المهترئ بمحرك (موتور) ينوي بسرعه من أحد الإيطاليين، ليتنكر من التوغل إلى عمق البحر ومصارعة جنونه. وهكذا ينمو التمرد في داخله وهو يجابه خرافات الفقيه، التي تعرقل مسعاه لتحسين معاشه، وثرك نومه بل تتراى له أحيانا كشبح، والأسوأ من ذلك أن الفقيه يسيطر على عقل زوجة مسعود، ويملا رأسها بخرافاته، وهي المرأة الساذجة التي لا يتجاوز حلمها أداء فريضة الحج.

### صراع مسعود الطبال مع الفقيه، الذي يعده عبدا مارقا لأنه تمرد عليه، ينشر إلى موقف الصادق النيهوم المناوئ لهيمنة السلطة الدينية البطرياركية

يشكل المونولوج حمسة الرواية، فمسعود الطبال هو قلبها ونواتها، والكائن الفرد الذي كثيرا ما يكون في

### الصادق النيهوم كاتب الناس وصوت فكري جريء (غرافيك «العرب»)

عمد إلى بناء شخصية رواية فريدة تتماهى والسرد التراثي، خاصة على مستوى الاحتفاء بالعنصر الخرافي، بحيث أفرز شخصية روائية اكتسبت ملامحها وسماتها انطلاقا من تعاقبها الفني المباشر بالشخصية الخرافية، تعلق يمكن اختزال مظهراته بعدة نقاط هي:

- 1 - عدم حمل الشخصية اسما معيناً يحيل إلى تكوين اجتماعي وثقافي معين، على الرغم من تقديم بعض الملامح التعريفية التي تتركز إما على صفاتها النوعية (أسد، ذئب، أرنب، فيل، جمل، تمساح، ثعلب، خرتيت...)، أو الطبقة (رئيس الحكومة، وزير الداخلية، وزير الثقافة، وزير العدل...)، أو العلاقة (أب، أم، ابن...).
- 2 - الطابع النمطي والجاهز للشخصية، فهي شخصيات جامدة، غير نامية، الأمر الذي جعلها أقرب إلى القوالب الفكرية منها إلى الشخصيات الروائية.
- 3 - بُنيت الشخصية الروائية على أساس التقابل الثقافي بين شخصيات معتدية (مفترة/قوية) وأخرى مُعتدى عليها (ضعيفة/ ضحية). لذلك كان الصراع ذا نمط علائقي مهيم يجمع بين هذه الشخصيات.

بين عناصر سردية تسترشد مقوماتها من الموروث الحكائي العربي القديم وعناصر سردية أخرى تستمد مكوناتها من السرد الحديث. ويمكن تحديد هذه العوالم بأربع حكايات هي: الحكاية الإطارية (حكاية الصقر والذئب)، حكاية الأسد والذئب، وحكاية الفيل، وحكاية السنجاب والصقر، وهي تتنظم ضمن نوع من التوالد السردية الذي يقوم على بنية سردية كبرى (الحكاية الإطارية)، وبنيات سردية صغرى (الحكايات الصغرى)، الأمر الذي أدى إلى تنوع الفضاءات، وتعدد الشخصيات، وتناقل الأحداث في شكل تداعيات جمعت بين الحقيقة والخيال، والواقع والرمز، والتجسيد والتجريد الذي ينزع، في بعض الأحيان، إلى توظيف العجائبي، وذلك على النحو الذي تمثلته حكاية اختفاء الفيل.

ومن الواضح أن الصادق النيهوم يحذو في هذه الرواية، وروايته الثالثة "الحيوانات"، حذو العديد من الكتاب العرب والأجانب، قديما وحديثا، في توظيف عالم الحيوان رمزياً، مثل ابن المقفع في كتابه الشهير "كلیلة ودمنة" وابن طفيل في "حي بن يقظان"، وإيسوب في حكاياته الخرافية التي يدور معظمها حول الحيوانات، وحديثاً جورج أورويل في روايته "مزرعة الحيوانات".

هؤلاء الزعماء يتعلمون بدورهم صناعة هذا السلاح، ومن ثم يمتلكون قوة ضافية في مواجهة خصومهم، ويحصل نوع من توازن القوى الراعد بين الذكور الأقوياء في مجتمع القرود إلى أن يحدث ما لم يكن في الحسبان حيث يتعلم كل من هب ودب من القرود صناعة هذا السلاح، فتصنع جميع القرود مسلحة، ويفقد الذكور الأقوياء والزعماء، عندهم مصدر قوتهم وهيبتهم، فيسبب الاضطراب في مجتمع القرود، وتتلانئ السلطة وتسود الفوضى.

ومن الواضح أن الصادق النيهوم يحذو في هذه الرواية، وروايته الثالثة "الحيوانات"، حذو العديد من الكتاب العرب والأجانب، قديما وحديثا، في توظيف عالم الحيوان رمزياً، مثل ابن المقفع في كتابه الشهير "كلیلة ودمنة" وابن طفيل في "حي بن يقظان"، وإيسوب في حكاياته الخرافية التي يدور معظمها حول الحيوانات، وحديثاً جورج أورويل في روايته "مزرعة الحيوانات".

### الحيوانات: رؤية نقدية للإقصاء

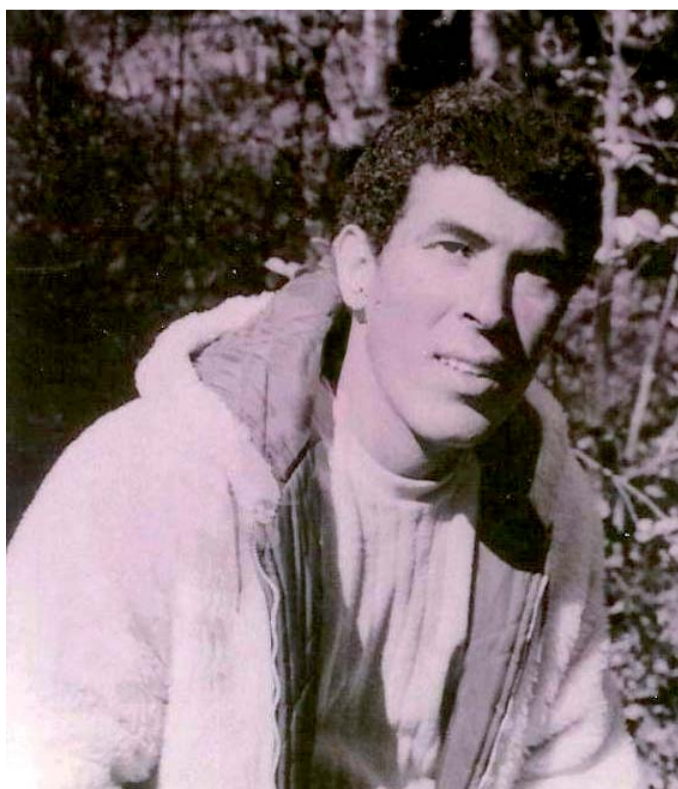
شيد الصادق النيهوم العوالم الكائنة لروايته "الحيوانات" (1984) في سياق رؤية فنية حاولت التوفيق

المكان وحيدا، ولا زمان له غير الزمن الذاتي، وزمن الطبيعة البحرية، وكانما يعطي ظهره لزمان الناس بانشغاله بالبحر وعراكه ومناجاته. ويستثمر النيهوم ذلك المتجذرة في الواقع، ومعاداتها لأي وجوديا يصوغ نفسه عبر أسلوب المناجاة في نسج الرواية، ويعيش مع أفكاره أكثر مما يعيش مع عالم الصيد، لكنه في نسج الفضاء السردية (قرية الصيادين) كائن لا ينتمي هامشي، وكأنه إحدى شخصيات كولن ويلسون.

### القرود: الصراع من أجل الهيمنة

تقوم رواية "القرود" (1975) على سرد يرمز إلى التنافس بين البشر، على نحو عام، وربما إلى الصراع الدولي وكذلك المحلي، على السلطة والسلاح والقوة والثروة والإناث، حيث يستمر الصراع بين الذكور الأقوياء في قطع القرود، وتكون الغلبة لمن يملك القوة العضلية والمهارة القتالية البدوية إلى أن يكتشف أحدهم، عن طريق الصدفة، صناعة سلاح عجيب يقب ميزان القوى، وهو عبارة عن عصا في رأسها عقرب سامة مثبتة بخيط، عندهم تميل الكفة في الصراع بين زعماء القرود على القيادة والإناث لصالح من يمتلك هذا السلاح الغفك الخفيف، لكن

## مفهوما المقدس والتنوير في فكر الصادق النيهوم



الصادق النيهوم في شبابه

خاطب في أحد مقالاته من يريد شراء الكاتب العربي مازجا بين الجد والسخرية "أن الكاتب ليس جروا مسعورا تربطونه أمام بيوتكم لكي يعرض لكم المارة مقابل قرشين" وذكر فيه الشخصية العربية وطريقة قيادتها، فقال "قد لا نملك فرصة في خلق حياتنا لكننا نملك كل شيء إلى بحص قيادتها"، دعوات النيهوم في حرية العقل وتغلبه على ما تعود الإنسان العربي من عادات وتقاليد جاءت كصرخات مدوية في الأوساط الثقافية العربية في التسعينات. التوافقية بين فكرة التنوير ونبذ التابوهات المجتمعية جاءت أيضا في ثيمة رواية الصادق النيهوم المهمة "من مكة إلى هنا" 1970 حتى فيها عن المقدس وشبه المقدس في حياة مسعود الطبال الزنجي، الذي يقرر مغادرة مدينته بنغازي لأن المستعمرين الإيطاليين يفرضون على ما يصطاده من أسماك ضريبة مرتفعة.

له ضمن كتاب بعنوان "طرق مغطاة بالتلوج عن الصادق النيهوم" جمعه وأعدده سالم الكيتي - صدر عن سيرة النيهوم عقب وفاته في العام 1994. إشكالية مزج الفكر المقدس بالفكر التنويري في قالب فلسفي وأدبي نجد بذوره في الحادثة السابقة، المؤثرة في حياة النيهوم، فلا نستغرب قوله في كتابه "الإسلام في الأسر" 1991 (افتحوا نوافذكم على العالم، وواجهوا أنفسكم، ودعوا الأشياء تنال قيمتها الحقيقية دون إقصاء لعوامل الغضب أو الرضا) وناقش الخطاب الديني، ودور الجامع وتفكيك نظام العدل الاجتماعي في الإسلام، وضرورة توظيف ما يسميه النيهوم (حزب الجامع) لإنقاذ الإسلام من عبودية التاريخ، ليوافجه الإقطاع والاصولية، وذكر فيه أيضا أن "المجتمع الجاهل لا يملك أفكارا معروضة للنقاش، لأن كل فكرة في حوزته مقدسة أو شبه مقدسة أو ربع مقدسة".

### الكاتب ليس جروا مسعورا تربطونه أمام بيوتكم لكي يعرض لكم المارة مقابل قرشين

روى الحادثة صديقه القلال في مقال به ضمن كتاب بعنوان "طرق مغطاة بالتلوج عن الصادق النيهوم" جمعه وأعدده سالم الكيتي - صدر عن سيرة النيهوم عقب وفاته في العام 1994. إشكالية مزج الفكر المقدس بالفكر التنويري في قالب فلسفي وأدبي نجد بذوره في الحادثة السابقة، المؤثرة في حياة النيهوم، فلا نستغرب قوله في كتابه "الإسلام في الأسر" 1991 (افتحوا نوافذكم على العالم، وواجهوا أنفسكم، ودعوا الأشياء تنال قيمتها الحقيقية دون إقصاء لعوامل الغضب أو الرضا) وناقش الخطاب الديني، ودور الجامع وتفكيك نظام العدل الاجتماعي في الإسلام، وضرورة توظيف ما يسميه النيهوم (حزب الجامع) لإنقاذ الإسلام من عبودية التاريخ، ليوافجه الإقطاع والاصولية، وذكر فيه أيضا أن "المجتمع الجاهل لا يملك أفكارا معروضة للنقاش، لأن كل فكرة في حوزته مقدسة أو شبه مقدسة أو ربع مقدسة".

فيصل عبدالحسن  
كاتب عراقي

من يريد فهم فكر الصادق النيهوم، الكاتب الليبي الموسوعي وشخصيته، عليه قبل أن يقرأ كتبه أو مقالاته المنشورة في جريدة الحقيقة الليبية ومجلة الناقد وغيرهما أن يحلل واقعة مهمة مرثت بحياة النيهوم وساهمت في خلق نظريته العلانية الساخرة في بعض الأحيان للمقدس وشبه المقدس في حياة الناس في كتاباته المختلفة. تعود الحادثة إلى العام 1937 العام الذي ولد فيه النيهوم، في مدينة بنغازي، لأب بحار يعيش مسافرا أكثر مما يعيش مستقرا، وأم مريضة توفيت لاحقا، وهو لم يزل ابن شهرين، مما جعل والده يعتمد في تغذية الرضيع على حليب نعجة. هذه النعجة بعد أن كبر الصادق النيهوم، وبلغ مبلغ الشباب، كان يراه صديقه أحمد القلال الأديب والناقد الليبي، كلما زاره في بيته، يجلس فوق جلدها الصوفي، ولم يتردد بإخبار القلال سائحا، أن والده احتفظ له بهذا الجلد الصوفي، الذي يجلس عليه الآن، وهو يعود للنعجة، التي رضع حليبها، بعدما توفيت أمه وهو لا يزال رضيعا.